# الفصل الأول

١ ـ صورة مسجد عمر بن الخطاب في بيت المقدس

بالنسبة لأولئك الذين تربوا في مجتمع منظم متطور نادرة تلك اللحظات التي تماثل في بهجتها اللحظات التي يقفون فيها على عتبة رحلة عاصفة إلى بلاد متوحشة. فعندما تفتح بوابات الحديقة المسورة، وتخفض سلسلة المنزل الآمن إلى الأرض، وتمد رأسك من البوابة، وتتطلع بنظرة حذرة إلى اليمين وإلى اليسار، تشعر أنك تخطو الخطوة الأولى نحو العالم اللامتناهي. عالم المخاطرة والمغامرة، مظلم بالعواصف الهوجاء، متألق تحت الشمس المحرقة، وأسئلة بدون أجوبة، وشكوك بدون تفسير تختبئ وراء كل تل، في ذلك العالم يجب أن تمشي وحيداً بعيداً عن جيوش الأصدقاء الذين يسيرون على الطرقات الوردية، متجرداً من الملابس الوردية الكتانية الناعمة التي تعرقل استعمال السلاح، بدون سقف، بدون دفاع، بدون مقتنيات، وسيحل صوت الرياح بدلاً من أصوات المستشارين المنمقة، وبلل المطر ووخز الصقيع الذي ينخس بحدة أكثر من المديح أو اللوم، وسوف تتحدث الضروريات بحس من

المسؤولية غير معروف بالنسبة للحكمة المستعارة التي يخضع لها الناس أو يرمونها إرادياً، وسوف تترك المأوى مغلقاً، ومثل الرجل في قصص الجنيات سوف تشعر بتحطم القيود التي كانت تطوق عنقك بإحكام وتقبض قلبك وذلك عندما تلج الممر الممتد أمامك عبر الكتف المستدير للأرض. كان صباح يوم عاصف في الخامس من شباط، كانت رياح غربية تهب من البحر الأبيض المتوسط مسرعة عبر السهل الذي كان الكنعانيون يخوضون فيه حرباً ضروساً ضد السكان اليهود[1]، وتقفز فوق حاجز الجبال الذي كان قد سبق للملوك المصريين

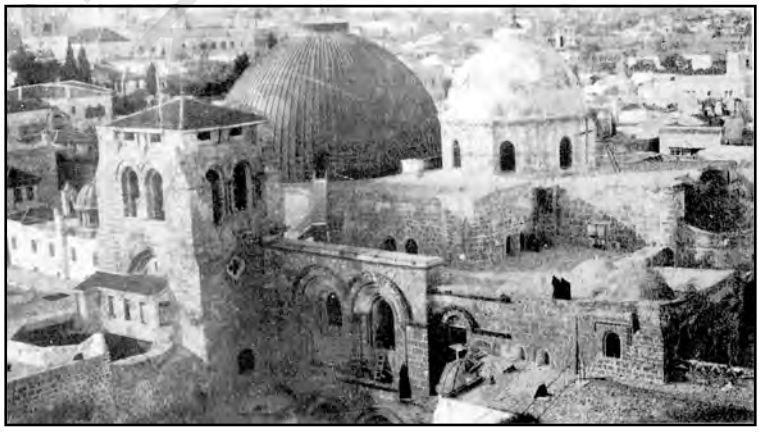

**٢ ـ صورة كنيسة القبر المقدس في بيت المقدس**

والآشوريين أن قادوا عبثاً حصاراً ضدهم. وهي تعول متحدثة عن أخبار الأمطار الهاطلة في القدس وتتقدم منحدرة عبر المنحدرات الشرقية الجرداء، منظفة سرير الأردن العميق بقفزة واحدة، ثم مختفية في الصحراء عبر هضاب موآب، وجرى وراء العاصفة كل كلابها وهي تعول عابرة باتجاه الشرق صاخبة بمرح.

(١) تقلب الكاتبة هنا الأمور فتوحي للقارئ إن الكنعانيين هم الذين يعتدون على القاطنين اليهود مع أن العكس هو الصحيح فالبلاد كنعانية في الأساس واليهود غزاة معتدون. (المترجم )

لا أحد ممن تذخر جنباته بالحياة يستطيع المكوث في البيت في مثل هذا اليوم، ولكن الموضوع بالنسبة لي لم يكن موضع تساؤل. كانت البغال في فجر ذلك اليوم الشتوي الكئيب قد تابعت سيرها حاملة كل مقتنياتي على سطح الأرض: وهي خيمتان، وصندوق أدوات المطبخ، وتموين شهر من وسائل الترف اللطيفة التي يمكن أن يقتنيها رحالة متقشف صارم، وهناك صندوقان صغيران محملان على البغل قد ملئا بمواد التصوير بشكل رئيسي، وعدد قليل من الكتب وبعض الخرائط الهامة. وقد جلبت البغال والبغالة معي من بيروت ولدي من الأمل ما يكفي لإتمام الرحلة على نحو أبعد، وقد كان جميع الرجال من لبنان، أب وابنه مسيحيان جاءا من قرية تقع أعلى بيروت، كان الأب أدرد الفم يغمغم دائماً بينما يركب فوق البغل منفرج الساقين فوق الصندوقين يتمتم بالأدعية والمباركات التقية الممزوجة بالاحتجاجات حول تقواه وصلاحه كمستخدم، ولكنه لا يرى أي حاجة للمساهمة بتحسين أحوال جماعته.. كان اسم هذا الشيخ الجليل إبراهيم، أما ابنه فاسمه حبيب، شاب في الثانية أو الثالثة والعشرين من عمره، أسمر، معدل القامة، عريض الكتفين، منظر وجهه الجانبي جدير بجسد أي يوناني، جريء النظرة تحت حاجبين سوداوين. وكان الثالث درزياً، وهو رجل ضخم بطيء الحركة، كسول على نحو عضال، تافه في طريقته المتواضعة بحيث كان يجردني من أسلحتي في قضايا السرقة أو في إضاعة القروش بعينيه المتوسلتين المتلهفتين اللتين تنظران بثبات لا تطرفان كعيني الكلب. كان جشعاً أميل إلى الغباء، مشوهاً بحيث كان من

٣. صورة شارع في القدس

الصعب تجنبه على وجبة من الخبز الجاف أو الرز أو الزبدة الزنخة الفاسدة، ولكني عندما أخذته ووضعته وسط أعدائه الدمويين، تباطأ في عمله، وترجل عن بغله، وسار وراءه حماره بسيماء المستسلم المعزول عن قومه التي رأيته عليها في شوارع بيروت. وقد كان اسمه محمداً. وكان العضو الرابع والأخير في القافلة طباخاً واسمه ميخائيل وهو مقدسي مسيحي ضعيف العقيدة، وكان قد رحل مع مارك سايكس واكتسب منه الصفة التالية (لم يكن يعرف أي شيء عن الطبخ إلا ما تعلمه بعد أن رافقني، ولكنه كان يبدو وكأنه لا يعير أي اهتمام لحياته أو موته) وعندما أعدت هذه الكلمات أمام ميخائيل انفجر بنوبات من الضحك المكتوم، وتعاقدتُ معه فوراً. لقد كان هذا السبب غير كاف ولكنه جيد على نحو معقول مثل كثيرين غيره، وقد خدمني جيداً من خلال فلسفته في الحياة، كان رجلاً صغير الجسم حساساً جداً ناري الطباع، جاهزاً دائماً لمواجهة أي إهانة محتملة في منتصف الطريق، مع تخيل للحدود لم أستطع أن أصل إليه أبداً خلال ثلاثة أشهر من التعرف. وقد تعلم لسوء حظه على أيدي سايكس ـ بالإضافة للطبخ ـ أشياء أخرى خلال السنوات التي قضاها معه عندما غرقا معاً في حادث تحطم سفينة في بحيرة وان، لقد كانت حادثة تمثل نموذجه بحيث إنه لم يضطرب أبداً عندما روى لي قصة هذه المغامرة، حتى إنني عندما لمّحتُ إليها ذات مرة هز رأسه وقال: (لقد كنا قريبين من الموت اقتراب الشحاد من الفقر، ولكن سعادتك تعلمين أن الإنسان لا يموت إلا مرة واحدة). وفي الوقت الذي كان

٤. بوابة سان ستيفان في القدس

٥ ـ موكب إسلامي يعبر جبل الزيتون

يمطر أذني بحكايات السائحين الذين ـ أكد لي أنهم ـ لم يكونوا يستطيعون ولم يرغبوا في السفر عبر سوريا دون الوثوق بقدراته في فن الطبخ، كانت زجاجة العرق هي العائق القاتل بالنسبة له.

وبعد القيام بكل المجادلات الوقائية المرتبطة بإطراء نتاجه انفصلت عنه على نحو مفاجئ على ساحل كيليكيا دون أن يكون هناك الإحساس بالأسف على ذلك فيما عدا الشوق الطبيعي لتوابله الحريفة وفطائره المحلاة.

كان لدي رغبة شديدة في السير عبر طريق جرش المقفر وحيدة كما فعلت سابقاً عندما وجهت وجهي باتجاه الصحراء، ولكن كان لميخائيل رأي آخر هو أن ذلك يتناقض مع وقار شخصيتي، وكنت أعرف أنه حتى رفقته المتوافقة مع شخصيته المهزارة لا تستطيع أن تتسلل عبر ذلك الطريق المقفر.

٦ ـ صورة حجاج روس

في الساعة التاسعة كنا على سروج خيولنا نسير بوقار حول أسوار بيت المقدس هابطين وادي الجثماني، حيث اعتقل السيد المسيح، عابرين بستان النزع الأخير صاعدين جبل الزيتون. وهنا توقفت لأثبت انطباعاً في الذهن لا يمكن أن ينسى للمدينة المسورة على الهضبة، رمادية في منظر حجري رمادي، تحت سماء مثقلة بالغيوم، ولكنها مضيئة بالأمل وبشوق لا يخمد لأجيال الحجاج. الخروج اللاشعوري من الروح المقيدة باتجاه هدف تتحقق من خلاله كل الرغبات وتجد النفس سكينتها، هذه الأشياء التي تحيط بالمدينة كهالة نصف متألقة، نصف هزيلة، تتألق عبر الدموع وتتلطخ بالعديد من خيبات الأمل. ولوت الرياح الغربية رأس حصاني وجعلته يعدو فوق قمة الهضبة ويهبط الطريق الملتوي عبر جبال اليهودية المقفرة.

في أسفل مجاز المنحدر يوجد نبع يسميه العرب (عين الشمس) ولكن المسيحيين يسمونه بئر الحواريين، ونادراً ما تمر من هناك في الشتاء دون أن تشاهد بعض الفلاحين الروس يستريحون في طريقهم المجهد الصاعد من

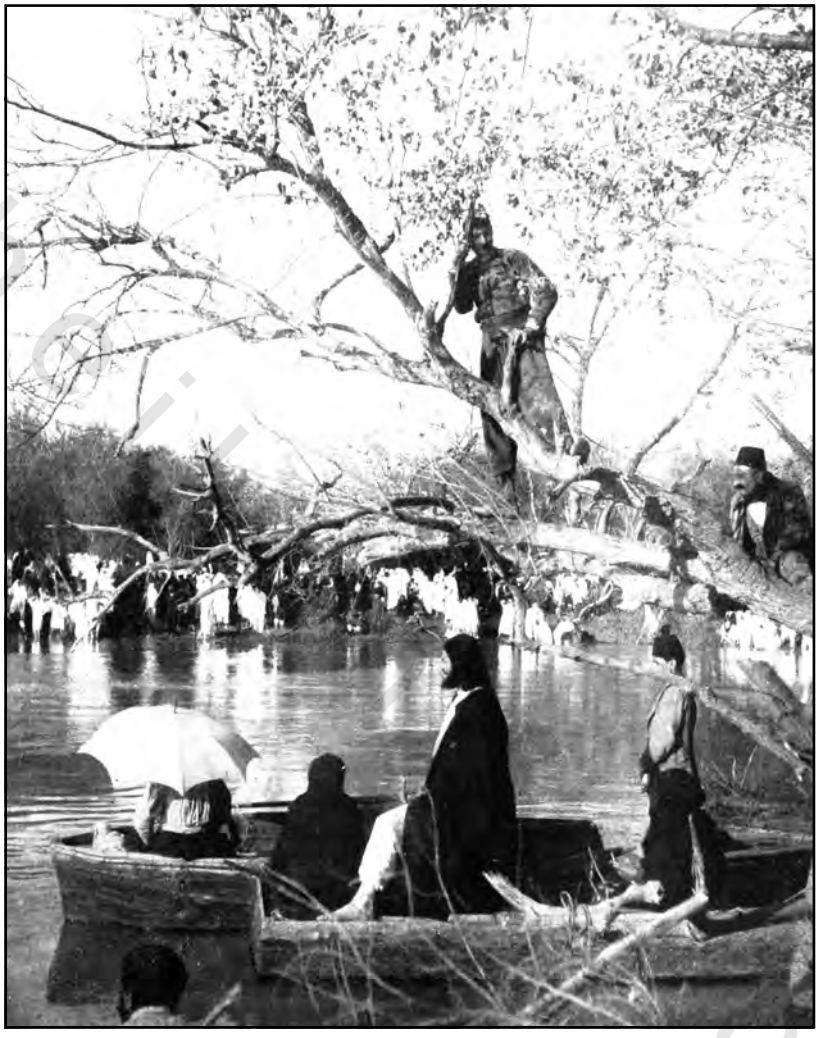

٧ ـ الحجاج يتعمدون في نهر الأردن

الأردن. ويتدفق عشرة آلاف منهم سنوياً إلى الأرض المقدسة، عجائز من الرجال والنساء، معظمهم فقراء أمضوا العمر كله يقتِّرون على أنفسهم ليجمعوا مقدار ثلاثين ليرة ذهبية من أجل الوصول إلى القدس. يسيرون على أقدامهم من أقاصي الإمبراطورية الروسية حتى يصلوا إلى البحر الأسود

حيث يركبون على سطح المركب في قوارب روسية صغيرة قذرة توصلهم إلى الساحل الفلسطيني. وقد سافرت مع ثلاثمائة منهم من أزمير إلى يافا، وقد كنت المسافرة الوحيدة التي حجزت مقصورة. كان الوقت منتصف الشتاء عاصفاً وبارداً بالنسبة لأولئك الذين ينامون على السطح، حتى لو كانوا يلتحفون بفراء جلود الأغنام وينتعلون الأحذية الطويلة المحشوة باللباد. وقد جلب رفاق سفري كل مؤنهم من أجل الاقتصاد، كتلة ضخمة من الخبز، قليل من الزيتون، وبصل نيء حيث تشكل هذه الأطعمة زادهم اليومي طيلة الرحلة. وكانوا يتجمعون صباحاً ومساءً من أجل الصلاة أمام أيقونة معلقة على قادس مطبخ السفينة حيث تصعد أصوات الابتهالات إلى السماء ممزوجة بارتجاج محرك السفينة ورذاذ رشاش الماء. يصل الحجاج إلى القدس قبل عيد الميلاد ويمكثون إلى ما بعد عيد الفصح بحيث يحظون بإمكان إشعال شموعهم عند النار المقدسة التي تنبثق من القبر المقدس في صبيحة البعث من بين الأموات وهم يتجولون على الأقدام على كل الأماكن المقدسة، ويأوون إلى فنادق ضخمة أنشأتها لهم الحكومة الروسية، ويموت العديد منهم بسبب تعرضهم للعوامل الجوية والتعب وعدم الاعتياد على المناخ. ولكن الموت في فلسطين يُعد من أفضل الأماني التي يمكن أن تمنحها يد المولى للعبد، حيث سوف تستقر عظامهم بنعومة في أرض الميعاد، وترفرف أرواحهم طائرة مباشرة نحو الفردوس. و تصادف هؤلاء المسافرين غير المثقفين على كل الطرقات الرئيسية يمشون مجهدين بصبر تحت الشمس الحارقة، وتحت أمطار الشتاء مرتدين فراء بلادهم وحاملين في أيديهم عصياً قطعوها من قصب سرير نهر الأردن. وهم يضيفون علامة مثيرة للشفقة شديدة الوضوح إلى المنظر العام محركة للعديد من المشاعر المؤثرة والشعور المعبر عن الحزن. وقد سمعت في القدس

قصة تصور أخلاقهم وطباعهم على نحو أفضل من كتابة صفحات في الوصف، وهي تتحدث عن لص كان يسطو على المنازل وقد قبض عليه في الجرم المشهود وأرسل إلى سيبريا حيث قضى عدة سنوات عقوبة في الأشغال الشاقة ولكنه عندما أنهى عقوبته عاد إلى أمه العجوز بقلب جديد، وسافر الاثنان إلى الأراضي المقدسة عسى أن يكفر عن ذنوبه. الآن وفي الفصل الذي يتواجد فيه الحجاج في القدس يحتشد الدهماء السوريون ليخدعوهم ويستغلوا بساطتهم ويضايقونهم من أجل الصدقات. وقد أتى واحد من هؤلاء المشردين إلى هذا الحاج الروسي الباحث عن التوبة في وقت لم يعد معه أي شيء ليعطيه وقد أغضبت عدم قدرته على العطاء المتشرد السوري فطرحه أرضاً وجرحه جراحاً بليغة تسببت في بقائه في المشفى ثلاثة شهور، وعندما شفي أتاه قنصل دولته وقال له: (لقد قبضنا على الرجل الذي كاد أن يقتلك، وقبل أن تغادر يجب أن تأتي وتدعي عليه)، ولكن الحاج أجاب: (أطلقوا سراحه فأنا نفسي كنت مجرماً).

كان الطريق خالياً بعد النبع وعلى الرغم من أنني كنت أعرفه جيداً، إلا إنني فوجئت مرة ثانية بإقفاره الذي لا يصدق، لا حياة، ولا زهور سوى سويقات شوك السنة الماضية، والتلال العارية والطريق المليء بالحجارة، كأن قفر الجبال اليهودية قد تغذى بروح الإنسان الشيطانية، وقد مشى على هذا الطريق أنبياء متجهموا الوجوه ينذرون بنهاية عالم لم يكونوا جزءاً منه ولم يفهموه، وقد امتلأ الوادي بالكهوف التي سكنوا فيها، بل إن بعضها مسكون حتى الآن بجنس من الزهاد الأتقياء الجائعين المتعلقين بأهداب من التقوى التقليدية تجدها الفطرة السليمة صعبة التكذيب. ووصلنا الخان الواقع في منتصف طريق جرش قبل الظهر، وتقول الأسطورة إن هذا المكان هو الذي

قابل فيه السامري الطيب الرجل الذي سقط على جانب الطريق، ودخلت الخان لأتغدى بعيد وصول الرياح العاصفة، كان ثمة ثلاثة من المسافرين الألمان التجار يكتبون بطاقات مصورة ويساومون الخاني لشراء خناجر بدوية مزيفة، وجلست أستمع لكلامهم السوقي المرصع بالتوافه. لقد كان هذا آخر كلام باللغات الأوروبية سوف أسمعه لعدة أسابيع، ولم أجد سبباً للأسف على المدنية التي سوف أخلفها ورائي، كان الطريق منحدراً شرقي الخان، ويعبر مجرى ماء جاف كان مسرحاً للعديد من المآسي. وقد اعتاد البدو أن يتربصوا تحت الجروف ليسرقوا الحجاج أو يقتلوهم أثناء مرورهم من هذا المكان. قبل خمس عشرة سنة كان طريق جرش غير مأمون، شأنه شأن المنطقة التي تقع خلف وادي الأردن. وقد امتد الأمان بضعة أميال نحو الشرق في السنين العشر الأخيرة، وأخيراً وصلنا إلى قمة التل الأخير ورأينا وادي الأردن والبحر الميت وخلفه منحدرات مؤاب الضبابية وحافة الصحراء. كانت جرش تقع تحت أقدامنا، قرية بشعة فنادقها متداعية للسقوط، وأكواخ يقطنها العرب الوحيدون الذين سيتعرف عليهم السائحون، سلالة منحطة، كمٌ، من أدنى السلم العرقي، نصف مولدين من أرقاء زنوج. وقد تركت حصاني مع البغالة الذين سبق وأخذناهم على المنحدر (وفقك الله ـ الحمد لله)! (إذا كنت بخير فنحن بخير) ونزلوا من الهضبة باتجاه القرية، ولكن دخول جرش غير كاف ليومنا الفخم الأول على الطريق، لقد كنت في شوق شديد لترك السائحين ورائي وكذلك الفنادق والبطاقات المصورة. ساعتان إضافيتان من السير وسنصل إلى شاطئ الأردن، ومن الممكن أن نخيم عند رأس الجسر الخشبي الذي يصل ما بين الضفة الغربية والضفة الشرقية في مكان مستور أسفل رابية موحلة، وفي الموضع الأكثر كثافة بالقصب ونبات الطرفاء. وتوقفنا وقفة

قصيرة لابتياع الشعير للخيول والبغال، ثم انطلقنا ثانية عبر الشريط الضيق من الأرض المزروعة حول بلدة جرش وخارج غور الأردن.

وطريق جرش خال من الناس بما يكفي، ولكن وادي الأردن فيه سيماء من البربرية الشريرة في معظمها، وإذا كان أنبياء العهد القديم قد شجبوا بعنف الكافرين به كما فعلوا تجاه بابل وصور فإن أفضل برهان على صحة بصيرتهم

**٨ ـ دير كورنثي فوق أريح**

سوف توجد هنا. ولكنهم كانوا صامتين ويجب على الخيال أن يعود القهقرى إلى الرؤى الملتهبة لبلدتي سدوم وعمورة والأساطير الخرافية للآثام التي لازمت طفولتنا، كما لازمت طفولة الشعوب السامية، كان جواً خانقاً يثقل أخفض نقطة على سطح الأرض، وكانت الرياح تعصف متسارعة فوق قمم التلال فوقنا في المناطق التي يتنفس فيها الإنسان هواءً طبيعياً، ولكن الغور كان راكداً لا حياة فيه كقعر بحر عميق. ومررنا من بين أكثر أحراش السدر الشائك كثافة. وتحكي القصص المسيحية: إن أغصان السدر قد جدلت ليصنع منها تاج الشوك الذي وضع على رأس السيد المسيح عندما كان يساق

إلى الصلب. كان ثمة نوعان من أجمات السدر ويدعوهما العرب الزقوم والدوم وهم يستخرجون من الزقوم زيتاً طبياً. ويحمل سدر الدوم نوعاً من الثمار الصغيرة تشبه التفاح البري، الذي يصبح عندما ينضج أحمر بنياً ذا مظهرٍ مغرٍ. إنها نوع من فاكهة البحر الميت الحسنة الشكل التي تترك على الشفتين عند تذوقها مذاقاً مراً رملياً. وتضاءل السدر واختفى، وانبسط أمامنا منبسط من الوحل القاسي الذي لا ينمو فيه شيء أخضر. كان لونه أصفر ملطخاً ببقع من الملح السام الرمادي المائل إلى البياض. لا تدرك العين بشكل كامل تقريباً منافاته للحياة. وأثناء ركوبنا في مكاننا هذا انقض علينا سيل من المطر الثقيل انحدر من التلال العالية حولنا، وشحبت وجوه البغالة واستطال حتى وجه ميخائيل، لقد كانت أمامنا الوهاد الطينية لسفر التكوين، ولا يمكن لأي بغل أو حصان المرور منها ما لم تكن جافة، واستمر المطر دقائق قليلة ولكنها كانت كافية لأن يتحول طين السهل إلى قوام يشبه قوام الزبدة، وقد غطست أقدام الخيل فيه حتى كواحلها، وإن كلبي كورت بينما كان يسحب فكيه من الوحل الأصفر اللزج مثل الغراء. وهكذا أتينا إلى الوهاد الطينية وهي السيماء الأكثر غرابة لهذه الأرض، وعلى بُعْد ربع ميل غربي الأردن يصبح الحزام أكثر ضيقاً إلى الشرق من المجرى، وانحل الطريق الناعم نفسه على نحو مفاجئ إلى سلسلة من المنحدرات والمصاطب الطينية المحززة بمجاري الأمطار الضيقة، ولم تكن المصاطب عالية فهي لا تزيد على أكثر من ثلاثين إلى أربعين قدماً على الأكثر، ولكن قممها كانت حادة جداً وجوانبها شديدة التحدر إلى درجة أن المسافر يجب أن يجد طريقة جيدة لعبورها أو السير حولها بأقصى درجات الحذر، لقد جعل المطر الغزير هذه المنحدرات زلقة مثل الزجاج، ولقد كان من المستحيل حتى أثناء السير على الأقدام أن يبقى الإنسان معتدلاً دون أن ينزلق، وقد سقط حصاني بينما كنت أقوده وكان

سقوطه لحسن الحظ على حافة صغيرة بين رابيتين وقد استطاع بمرونة مدهشة أن ينقذ نفسه ويعتدل مرة أخرى، وقد تنفست الصعداء شكراً لله عندما انبثقت قافلتي من الوهاد الموحلة. وقد كان من الممكن لو استمر المطر أكثر أن نسجن هناك عدة ساعات، لأنه لو سقط خيّال في حفرة موحلة كثيفة فإن عليه أن ينتظر هناك حتى يجف الوحل.

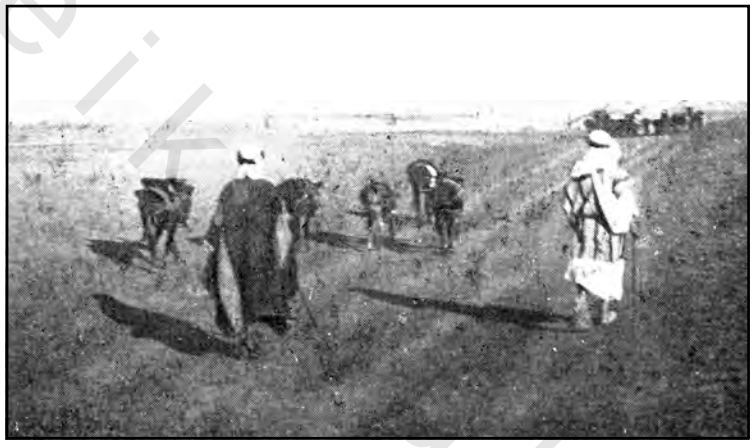

٩ ـ عبور الغور

وتوجد حياة على طول شط النهر، وقد تغطت الأرض ببساط من العشب الأخضر وزهور الربيع الصفراء، كما أظهرت حشائش الطرفاء العنيدة إشارات واهنة على قدوم الربيع وخببت فرسي على الجسر العظيم بجوانبه المعرشة وسقفه الخشبي وهو يمثل القطعة الهندسية الأكثر إثارة في العالم، حيث إنه يشكل بوابة الصحراء، لقد كان هناك الموضع المفتوح كما تذكرته مغطى بطبقة رقيقة من التربة محمية بالشواطئ الطينية العالية، وهي خالية والحمد لله، وقد كان لدينا سبب للقلق عند رأس الجسر هذا. كانت الحكومة التركية قد حشدت في ذلك الوقت كل ما تستطيع من العسكر لإرسالها لتهدئة العصيان

المسلح في اليمن. كانت الكتائب العسكرية في جنوبي سوريا تنحدر سيراً على طول طريق سكة حديد الحجاز حتى معان التي تشكل الحد النهائي الذي وصلت إليه سكة الحديد قرب البتراء، وكانوا مجبرين بعد ذلك على السير على طريق صحراوي رملي مقفر مفزع، يمتد من معان حتى فم خليج العقبة، وكان مئات من الرجال وآلاف من الجمال تموت قبل أن تصل، وذلك أنه لا يوجد على هذا الطريق إلا ثلاث آبار حسب قول العرب وإحدى هذه الآبار تقع على بعد ميلين من الطريق ومن الصعب الاستدلال عليها لمن لا يعرف المنطقة.

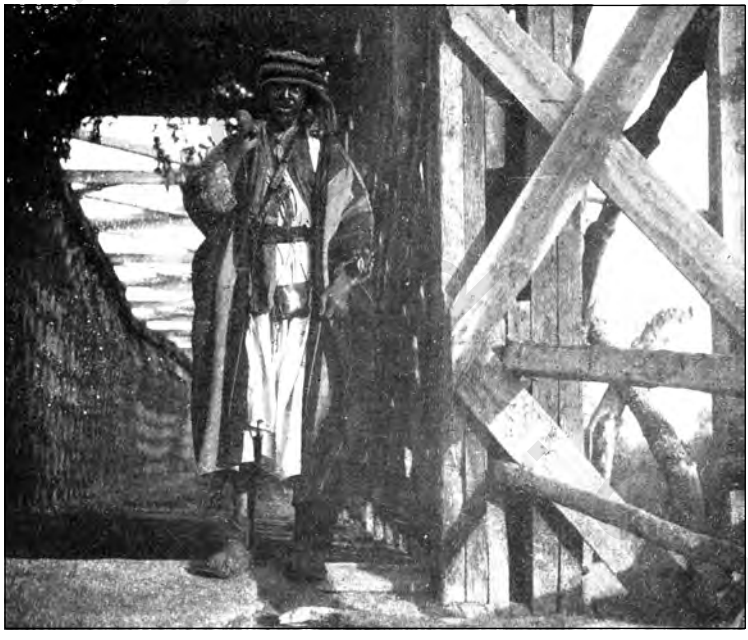

١٠ ـ جسر على نهر الأردن

ونصبنا الخيام وعقلنا الخيول وأشعلنا في الهواء الطلق ناراً عظيمة من أغصان الطرفاء والصفصاف، كانت الليلة رمادية وساكنة، وكان ثمة أمطار على التلال، ولكن لا شيء عندنا، كان المعدل السنوي لهطول الأمطار في وادي

الأردن مجرد بضع بوصات في السنة. ولكننا لم نكن وحيدين تماماً في المنطقة، فقد فرضت الحكومة التركية رسماً ضئيلاً على حركة العبور من وإلى الجسر ووضعت موظفاً من أجل تحقيق هذا الهدف. كان يعيش في كوخ من القصب بجانب مدخل الجسر، وكان يشاركه في عزلته هذه عربي أو عربيان بائسان من الغور، كما كان ثمة زنجي أشيب الشعر كان يجمع الحطب من أجل نارنا، وقد قضى الليل معنا ثمناً لخدماته. كان خفيف الروح واسمه مبروك وقد رقص حول نار مخيمنا، غير آخذ بعين الاعتبار بأنه مشوه على نحو مناف للعقل بالنسبة لكائن إنساني، وقد حكى حكايات عن الجنود وكيف هبطوا إلى الغور يرتدون أسمالاً، حفاة الأقدام على الرغم من أنه كان يومهم الأول في المسير، نصف جائعين، فقراء بائسين، وقد مر طابور في صباح ذلك اليوم ومن المتوقع أن يأتي آخر غداً، ونحن قد افتقدناهم.

(ما شاء الله) قال ميخائيل: فخامتك محظوظة، لقد هربت في البداية من الهضاب الموحلة ثم بعد ذلك من الرديف [1] (الحمد لله) تمتم مبروك.

ومنذ ذلك اليوم أعتبر نجمي هو نجم السعد، وسمعنا من مبروك الشائعات الأولى عن حوادث الصحراء، كان حديثه دائماً عن ابن رشيد وهو شيخ عشيرة شمر الشاب الذي ترك له عمه القوي ميراثاً صعباً، وخاصة فيما يتعلق بالسيطرة على وسط الجزيرة العربية، وكنت قد انقطعت عن أخبار نجد منذ سنتين، وماذا حل بالصراع بين ابن مسعود حاكم الرياض وبين ابن رشيد؟ وإلى أين وصلت الحرب بينهما؟ وقد سمع مبروك شائعات كثيرة. وقد قال

(١) كان يطلق على القوات العسكرية المرسلة إلى اليمن في العهد العثماني اسم الرديف (أي القوات التي تردف الحامية العسكرية العثمانية الموجودة أصلاً في اليمن ). (المترجم )

الناس: إن وضع ابن رشيد جيد جداً؛ وذلك لأنه مرتبط بنجد وليس باليمن، ومن يستطيع أن يؤكد ذلك؟ أو ما قد سمعناه عن إن أحد شيوخ الصخور قد قتل من قبل العجارمة بمجرد رجوع القبيلة من المراعي الشرقية. وهكذا سارت أحاديث القيل والقال عن الصحراء بمستوياتها المألوفة عن حوادث الثار وسرقة الإبل، وكدت أبكي من الغبطة وأنا أسمع هذه الأحاديث العذبة عن الصحراء. لقد كان هناك وابل من اللهجات العربية في مخيمي ذلك المساء، حيث كان ميخائيل يتحدث اللهجة العامية في أحياء القدس الفقيرة، وهي لهجة مجردة من الأصالة، وحبيب يتحدث اللهجة اللبنانية الفخمة، ومحمد يتشدق باللهجة البيروتية وطريقتها البطيئة في الإيقاع، على حين كانت الكلمات تتساقط من فم الزنجي بلهجة أقرب إلى لهجة البدو القوية الفخمة، وقد اندهش الرجال من تنوع جرس اللهجات، وقد التفتوا حالاً إليّ وسألوني أيها أكثر صحة. ولم أستطع إلا أن قول: (الله أعلم، لأنه هو العليم.!) واستُقبلتْ الإجابة بضحكة القبول مع اعترافي بعدم وثوقي بصحة ما قلت.

كان الهواء ساكناً والسماء رمادية عند الفجر، كنت قد استيقظت قبل الفجر بساعة ونصف من أجل تجهيز البغال للمسير وهي القاعدة الرئيسية التي كنت ألتزمها، ولكننا كنا نستيقظ أحياناً قبل عشر دقائق، وأحياناً بعدها بقليل مع الأسف. وقد قضيت الوقت أتحدث مع حارس الجسر وهو من مواطني القدس، وقد أفضى إليّ بدخيلة نفسه من خلال أذني المتعاطفة. تحدث عن أحزانه والحيل التي اعتادت الحكومة العثمانية صبها عليه، والحمل الثقيل البشع للوجود في حر الصيف الشديد. والمكافأة في النهاية لا شيء. والحقيقة أن دخله أكثر بكثير مما يستحق ومما صرح به، فقد اكتشفت لاحقاً أنه قد أخذ ثلاثة قروش عن كل حيوان من حيواناتي السبعة، بدلاً من

قرشين وهو الرسم المقرر. من السهل أن تقيم علاقات طيبة مع الشرقيين، وإذا كانت صداقتهم ذات ثمن فإن هذا الثمن عادة ضئيل.

وعبرنا الجسر لقاء ثلاثة قروش عن كل فرد وأخذنا الطريق الشمالي الذي يقود إلى السلط. كان الطريق الأوسط يقود إلى (حشبان Heshban) (حيث يسكن شيخ كل عرب البلقاء؛ سلطان بن علي بن دياب العدوان، وهو نذل بكل ما في الكلمة من معنى). وإلى الجنوب من مادبا في مؤاب، والجهة الشرقية من الغور أكثر خصباً من الجهة الغربية، فثمة مقادير وافرة من المياه تنحدر من مرتفعات عجلون محولة السهل إلى حديقة ولكن الناتج غير كاف

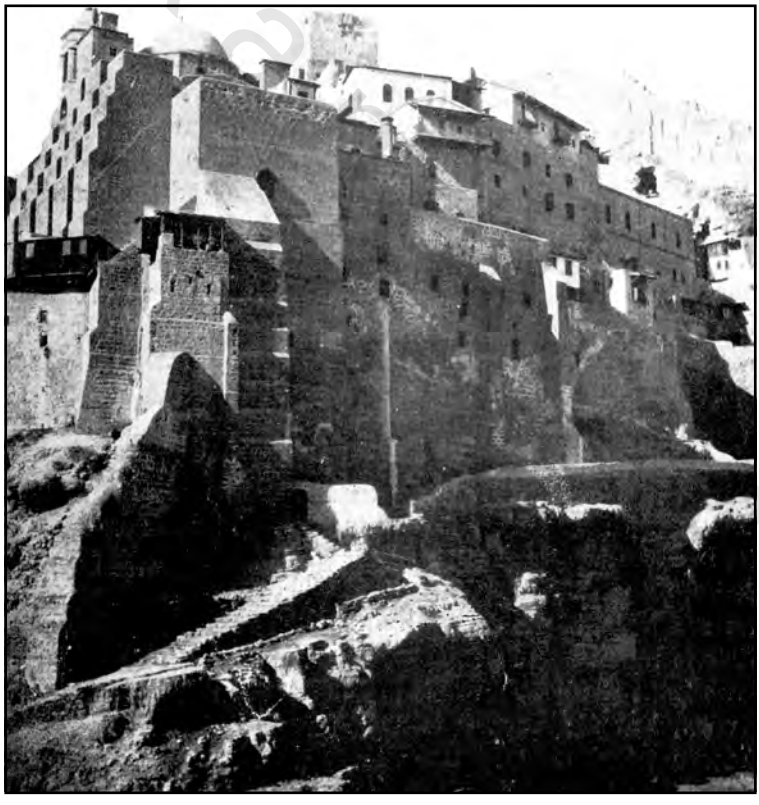

١١- دير مار سابا في جرود اليهودية

ليُخْتَزن ويكتفي عرب العدوان بزراعة مقادير محدودة من القمح. ولم يبدأ موسم الأزهار بعد. ويتحول القسم الشرقي من الغور إلى بساط بديع من أنواع الزهور في نهاية شهر آذار، حيث لا يستمر أكثر من شهر بسبب الحرارة الشديدة في الوادي. وفي الواقع أنت ترى النباتات في مراحلها الثلاث، براعم وزهور وثمار في شهر واحد وقد دلنا على الطريق عربي فقير، كان نازلاً ليلتحق بالرديف، وقد تم شراؤه كبديل عن مجند آخر لقاء خمسين ليرة ذهبية فرنسية، وكان هذا المجند من أغنياء السلط، وعندما وصل إلى الجسر اكتشف أنه تأخر كثيراً، حيث إن قطعته العسكرية كانت قد مرت منذ يومين.

**١٢ ـ حائط المبكى في القدس**

لقد شعر بالأسف كان يريد أن يسير مباشرة إلى الحرب (وأكثر من ذلك فأنا أتصور أن عليه أن يعيد الخمسين ليرة ذهبية إلى أصحابها). ولكن ابنته سوف تكون مسرورة لأنها بكت عندما رأته يذهب. وقد توقف لينظف حذاءه

من الطين (في السنة المقبلة) قال وهو يمسك بي مرة ثانية (إن شاء الله سوف أسافر إلى أمريكا).

ونظرت متأملة إلى هذا الرجل نصف العاري حيث ملص حذاءه من قدميه وقد انزلقت عباءته الممزقة عن كتفيه، وحطة رأسه الصحراوية وعقاله المصنوع من وبر الجمال.

وسألته (هل تعرف شيئاً من الإنكليزية ؟).

أجاب بهدوء: (لا، ولكني سوف أوفر آجار الطريق، والله لا يوجد مجال لتحسين الوضع هنا). وسألته: ماذا سيفعل عندما يصل إلى أمريكا؟ أجاب: (أشتري وأبيع وعندما أوفر مئتي ليرة سوف أعود).

وأنت تسمع نفس القصة في كل أرجاء سوريا.. يسافر المئات سنوياً ويجدون حيثما رسوا بعض مواطنيهم الذين يقدمون لهم يد المساعدة. وهم يتجولون في الشوارع منادين على بضائع رخيصة، وينامون تحت الجسور ويأكلون أطعمة يأبى أي مواطن حر حتى أن ينظر إليها. وعندما يدخرون مائتي ليرة ذهبية، أقل أو أكثر قليلاً يعودون إلى بلدهم أغنياء قياساً بمواطنيهم. والهجرة في شرقي الأردن ليست كبيرة، وقد صادفت مرة في جبال حوران عندما كنت أسأل عن الطريق درزياً أجابني بلهجة أمريكية واضحة. وقد كبحت إعجابي عندما أخبرني حكايته، وبعد أن انتهى من روايتها سألته إن كان يرغب في العودة مرة أخرى. فنظر إلى الأكواح الحجرية البائسة المحيطة به في قريته، ثم ركع على ركبتيه في الثلج الذائب وقال: كوني على ثقة !.. وعندما تابعت سيري قال بابتهاج بالإنكليزية (إلى اللقاء).

بعد أن ركبنا سرنا ساعتين ثم دخلنا وادياً متمعجاً أطلق عليه مرافقي اسم وادي الحسانية على اسم القبيلة التي تقطنه. كان مزداناً بنباتات الرتم وشقائق النعمان، وبخور مريم والمكحلة الحدقية الياقوتية وأشجار من اللوزيات البرية.. والنباتات التي لا تستعمل ليس لها اسم في اللغة العربية مهما كانت جميلة فجميعها يطلق عليها اسم حشيش[1] على حين أن أصغر نوع من أنواع البقول أو النباتات المستعملة لها اسم متميز في هذه اللغة. وبدأ الطريق الذي لم يكن إلا مسلكاً مبطئاً للحركة بسبب ارتفاعه التدريجي.

١٣ ـ يهود من بخارى

وبمجرد أن دخلنا الضباب الذي يغطي قمة الهضبة رأينا البحر الميت أسفل منا إلى الجنوب ممتداً تحت سماء رمادية مثل مرآة كبيرة مغبشة. ووصلنا السلط في الساعة الرابعة تحت طقس جبلي حقيقي، ضباب رطب ومحث على السير. وأكثر من ذلك كانت القرية عبارة عن مستنقع لأن الأمطار التي سقطت فوقنا في الليلة الماضية قد سقطت هنا وترددت بنصب مخيمنا حتى استطعت أن أجد مكاناً أكثر جفافاً. كانت الخطوة الأولى بعد ذلك البحث عن منزل حبيب أفندي فريز الذي أتيت إلى السلط لرؤيته على الرغم من أنني لا أعرفه، وطلبي له (لأنني أعتمد كلياً على مساعدته في مواصلة رحلتي) بسبب هذه الحكمه: لقد كان متزوجاً من ابنة كاهن وطني من حيفا وهو رجل عجوز ذو قيمة وتربطني به صداقة حميمة. كان أصل عائلته من مدينة أورفا على الفرات. لكن أبا نمرود قد توطن منذ فترة طويلة في السلط

(١) هذا الكلام غير صحيح والبدو هم أكثر الناس جهلاً بأنواع النباتات وأسمائها وقد حكمت على اللغة العربية من خلالهم وهذا تجنٍ وظلم. ( المترجم )

وهو يعرف الصحراء. وقد أمضى القسم الأعظم من الساعات التي كان من المفترض أن يعلمني فيها قواعد اللغة العربية بالحكايا عن العرب وعن ابنه نمرود الذي كان يعمل مع حبيب فريز والذي كان اسمه معروفاً عند جميع عرب البلقاء.

(إذا ما رغبت في أي وقت الذهاب إلى الصحراء) قال أبو نمرود: (اذهبي إلى نمرود) وهكذا ذهبت إلى نمرود.

بعد تساؤل قصير دللنا على بيت حبيب فريز، واستقبلت بحرارة، كان حبيب في الخارج، كما كان نمرود مسافراً (هل تخلى عني سعدي؟) ولكن ألا أستطيع أن أدخل وأستريح ؟ كان المنزل صغيراً والأطفال كثر. وبينما كنت أقلب الأمر على وجهه فيما إذا كانت الأرض المغمورة بالماء خارج البيت سوف تقدم منزلاً أفضل. ظهر رجل مسن ضخم يرتدي لباساً عربياً كاملاً، وأمسك بلجام فرسي وأعلن أنه هو وليس غيره من سيؤويني. وهكذا سحبني بعيداً. وتركت فرسي في الخان، وصعدت بعد ذلك درجاً موحلاً ثم دخلت إلى أرض دار مبلطة بالحجر. وأسرع يوسف أفندي إلى الداخل وفتح باب غرفة الضيوف. كانت الأرض والأريكة مفروشتين ببسط سميكة. كانت النوافذ زجاجية ولكن العديد من ألواح زجاجها كان مكسوراً. وكان ثمة قنصلية أوربية ملتصقة بالجدار. وهذا كان أكثر من جيد، وخلال لحظات كنت قد استقررت وشربت قهوة يوسف وأكلت كعكي. كان يوسف أفندي سكر مسيحياً وهو أغنى سكان السلط، كان رجلاً قليل الكلام ولكن لا أحد يعدله بكرم ضيافته، وقد جهز لي عشاءً فاخراً وعندما انتهيت قدم البقايا لميخائيل، وبعد أن قضى حاجاتي المادية لم يستطع أو لم يرد أن يفعل شيئاً ليهدئ قلقي الذهني حول

هدف رحلتي الأبعد. ولحسن الحظ ظهر في هذه اللحظة حبيب فريز وأخت زوجته بولينا وهي امرأة كبيرة السن مطلعة، وعدة أناس مهمين، حيث أسرع الجميع ليتشرفوا بإمكانية قضاء أمسية من الحديث معي (كان التشرف بي لا سمح الله). وجلسنا نشرب القهوة العربية المرة التي مذاقها أطيب من رحيق العسل. يقدم الفنجان بكلمة (تفضل) فتعيدها فارغة بعد شربها وتتمتم (عشت) بينما تقذف في فمك رشفة. فيجيبك الساقي (صحتين) وتجيب أنت (على قلبك) وبعد أن دارت الفناجين مرة أو مرتين على الحاضرين قيلت جميع عبارات التهذيب في هذا المجال، دخلت في موضوع عمل الليلة (كيف أستطيع أن أصل إلى جبال الدروز؟). ربما ترفض الحكومة إعطائي الإذن بالذهاب إلى هناك. ثمة مركز عسكري في عمان على بوابة طريق الصحراء، وفي بصرى يعرفونني وقد انزلقت من بين أصابعهم منذ خمس سنوات، هي لعبة لم يعد من السهل أن تلعب مرة أخرى من نفس المكان. وأولى حبيب فريز الموضوع ما يستحق من الاهتمام، ثم اتفقنا في النهاية على خطة فيما بيننا. سوف يرسلني غداً إلى الطناب، حيث أرضه المزروعة قمحاً على أطراف الصحراء، وهناك سوف أجد نمرود الذي سوف يرسل رسولاً إلى القبائل الكبيرة هناك وبحراسة منهم سوف أستطيع الوصول بأمان إلى هضاب جبل الدروز. كان طفلا يوسف الصغيران يسمعان مندهشين لما يدور من أحاديث. وفي نهاية الكلام جلب

١٤ ـ (قسيسان حبشيان )

واحد منهما قصاصة إعلان ورقية عليها خريطة أمريكا، عند ذلك أريتهم خرائطي وأوضحت لهما ضخامة العالم وكم هو جميل حتى انفض الجمع في الساعة العاشرة مساء وبدأ يوسف يفرش اللحف من أجل تهيئة فراشي، على أنني لم أكن حتى ذلك الوقت قد رأيت مضيفتي. كانت امرأة ذات جمال استثنائي، طويلة وشاحبة ذات وجه بيضاوي مليء، عيناها الكبيرتان تشبهان نجمتين، كانت ترتدي اللباس العربي، وهو عبارة عن ثوب أزرق غامق ضيق يصطدم بكاحليها العاريين عندما تمشي، وحجاب قطني أزرق غامق يعصب جبينها مع منديل أحمر ينحدر على ظهرها ويصل حتى الأرض تقريباً. وقد وشمت ذقنها ورقبتها بوشم أزرق جميل مثل النساء البدويات. وقد جلبت لي ماءً لأغسل يدي وكانت تتحرك في الغرفة بسكون وعلى نحو يعكس الجلال والمهابة، وحالما انتهت خدمتها الكهنوتية اختفت بسكون مثلما دخلت، ولم أرها مرة أخرى.

**ألمت فحيت ثم قامت فودعت  فلما تولت كادت النفس تزهق**

هكذا قال سجين مكة، لا أحد يرى زوجة يوسف، وعلى الرغم من أنه مسيحي فإنه يحجب امرأته أكثر من أي امرأة مسلمة، وربما كان ـ رغم كل شيء ـ على حق.

كان المطر يضرب النوافذ واضطجعت على فراشي وميخائيل يهمس متعجباً بأذني (ما شاء الله فخامتك محظوظة).